بسم الله الرحمن الرحيم

دارُ الرَّياحين

ملاك محمود الجنيد

- هل تعتقد أنهم سـ يسمحون لنا بالعودة إلى دارِ الرياحين ؟

- أجابها ببطء وهو ينفض رماد السيجارة العالقة بين أصابعه : ولِمَ لا ؟! لقد قضيتُ من عمري ما يقارب الخمسة عشر عامًا أدفع لهم ملايين الشواكل .

- ولكن يا خالد أنت تعرف أنّ الإسرائيلي لا عهد له . ذاك المدعو آرييل شمعون يعمد إلى استغلالك .

- أعلم ذلك ، لكنها السبيل الوحيدة للحفاظ على الدار . لا يمكنني التفريط بـ دار الرياحين يا سلام ، إنها كل ما تبقّى لي من تاريخي وإرث عائلتي . ثم لا تنسي وصية والدي .

- حسنًا ومتى السفر ؟

- قريبًا إن شاء الله . هل عاد الطفلان ؟

- نعم . إنهما يلعبان في الخارج .

- هل أخبرتِهما عن موضوع السفر ؟

- أجل . وقد سُرّا كثيرًا .

- نفث خالد دخان سيجارته ، تنهّدَ بعمقٍ ثم أسند ظهره إلى الكرسيّ وقال : أخشى ما أخشاه أن يتربى جهاد ويافا في الغربةِ وأن يكون مصيرهما كـ مصيرنا أنا وأنتِ يا سلام !

- لا تقلق يا عزيزي . لعلّ الله يحدث بعد ذلك أمرًا .

- ونعم بالله .

نشأ خالد وتربّى في أوساط الجالية الفلسطينية في ألمانيا رفقة والديه اللّذين هاجرا مع من هُجّروا من أرضهم وديارهم ، تعرّف خالد على سلام أثناء دراستهما في كلية الطب ثم تزوجا ، وبعد ثلاثة أعوام رزقا بطفلهما البكر " جهاد " ثم بطفلتهما " يافا " . لم تستطع سلام إكمال دراستها فقد آثرت أن تعطي اهتمامها لزوجها وطفليها الصغيرين . أما خالد فقد أصبح طبيبًا مشهورًا ترفع به جاليته الفلسطينية رأسها بين الألمان !

- بصفتي طبيبة لم تزاول المهنة آمرك أن ترمي هذه السيجارة من بين أصابعك على الفور ؛ لأنها تضرّ بصحتك . قالتها سلام وهي تقرّب الصحن المملوء بالرماد أمام خالد .

- أنزل السيجارة من بين شفتيه ودسّها في الصحن ، ثم همس قائلاً : أحاولُ أن أشغل نفسي بها . مع ذلك فـ أوامر زوجتي العزيزة مُطاعة .

- أطلقت سلام ضحكة خفيفة أردفتها بالقول : أحبُّ فيك تواضعك !

دخل الطفلان يركضان ، قبّلا والديهما وارتميا على الأريكة الحمراء ذات الملمس الناعم . كانت يافا تحاول مدّ عنقها كي تلامسَ خيط الشمسِ المتسلّلِ من النافذة المطلة على حديقة المنزل .

- رمقها جهاد وبادرها بسخرية : لن تصلي ! أنتِ لا تزالين صغيرة وعنقكِ صغير .
- قطبت يافا حاجبيها وأجابته بـ بحنق : من يسمعك يظنك صرتَ رجلاً بـ شاربين .
- همّ جهاد بالردّ إلاّ أن أمه قاطعته بالقول : كفّا عن هذا الآن . بما أن بابا اليوم لديه إجازة ما رأيكما أن نذهب في رحلة ؟
- أطلق الطفلان ضحكاتٍ متعالية وهما يحاولان القفز على الأريكة فرحًا بينما كانت أقدامهما تغوص في أرضيتها الوثيرة ، وهما يصرخان مرددين : نعم نعم نعم .

****

بدأت العائلة بحزم حقائب السفر. يحاول خالد وزوجته إخفاء قلقهما عن الطفلين ، فهما لا يريدان إفساد حماسهما الطفولي !

عشر سنوات مرّت مذ زار خالدٌ فلسطينَ آخر مرة .. تحديدًا قبل أيامٍ قليلة من مولد جهاد . لا تزالُ سلام تذكر ذلك اليوم وكم كان قاسيًا عليها حيث أنجبت مولودها البكر وزوجها غائب ، حينها ظلت ترقب عودته بفارغ الصبر خشية أن يغيب عنها إلى الأبد !

كان خالد قد سافر حينها ليتفقد أمر دار الرياحين بعد أن أخبره قريبه بأن جنود الاحتلال قد داهموا المنزل وأمروا بإخلائه لإسكان أحد المستوطنين . كان وقع الخبر على خالد كـ الصاعقة ، فهو بالكاد استطاع أن يستردّ الدار بعد أن قدّم للعميد آرييل شمعون عرضًا مغريًا بدفع مبلغٍ كبير نهاية كل شهر مقابل أن يحتفظ بملكية الدار وأن يُسكِن فيه أحد أقربائه .

كان الأمر صعبًا على خالد بعض الشيء لكنه لم يكن مستحيلاً ، فدخله كـ طبيبٍ ناجح ومتميز في عمله يساعده في ذلك .

انتهى الأمرُ بلجوء خالد لزيادة المبلغ ، ولم يكن من المدعو شمعون إلا أن وافق على عرض الطبيب . فـ كان الأمر كما قالت سلام " استغلالٌ محض " ! .

- أزاحت يافا الملاية من على وجهها ، همست متسائلة : تُرى على أيّ هيئة يبدو دار الرياحين ؟ هل رأيتَه من قبل ؟
- أجابها جهاد وهو يحاولُ مغالبة شعوره بالنعاس وقد شدّه السؤال : لا . لكني أظن أنه جميل جدًا ويستحق ما يبذل والدي من مجهودٍ لأجله .
- أثار الأمرُ مخيلة يافا فـ بدأتْ تسردُ صورًا التمعتْ في مخيّلتها : أظنه منزلٌ حجري في غاية الجمال وكأنه خرج من حكايةٍ قديمة كـ تلك التي ترويها لنا أمي قبل النوم . ترتصف أحجاره البنيّةُ العتيقة بطريقةٍ هندسية في غاية الجمال . وعندما يحين موعد الغروب تكتسي حُمرة ذهبية ساحرة .

ونحو باب المنزل يرتصفُ - تصاعديًا – سلّمٌ حجريّ صُنِعَ من نفسِ الحجارة ، تتوزّع على حوافه أصصٌ من الوردِ الأحمرِ والأبيض .

- أغمضت عينيها وواصلت : بينما تمتلئ شرفات المنزل بأصص الريحان . الله كم هي جميلة ورائحتها زكية !

- وما أدراكِ أنها ريحان ؟! ربما تكون شيئًا آخر ! توليب أو ياسمين مثلاً !

- مالت بجسدها الصغير على الجانب الأيسر ناحية جهاد ، وقالت : طالما اسم الدار " دار الرياحين " فـ بالتأكيد أن الريحان يُزرع فيه بكثرة .

- حسن أيتها الحالمة ذات المخيلة الخصبة والواسعة ما رأيكِ أن نخلد إلى النوم ؟

- بدا وكأن يافا لم تسمع جهاد . استوت على ظهرها ، أمسكت بحواف البطانية ، بدا وجهها مشدودًا وهي تغمض عينيها بإحكام وكأنها تحاول منع صورة مزعجة من اقتحام مخيلتها ، صرخت بصوتٍ عالٍ : إنهم يحاولون اقتحام دار الرياحين وأخذه منّا !

- انتفض جهاد من مكانه وهو يسأل يافا بصوتٍ مرتجف : ما الذي حدث ؟!

- أجابته بصوتٍ مفزوع وهي تبكي وقد فتحت عينيها : رأيتُ قطعانًا من الصهاينة تحاول اقتحام منزلنا بالقوة .

- أخذ جهاد منديلاً وصار يمسح الدموع من وجه أخته وهو يقول مطمئِنًا : لا تخافي ، سآخذ بندقية جدي وأقضي عليهم جميعًا !

- فتحت عينيها على اتساعهما ، هدأ نشيجها قليلاً ثم قالت بصوتٍ يرتجف وهي تحاول التقاط أنفاسها : حقًا ؟! هل تستطيع ؟!

- قال جهاد والزهو يغمره وقد استقام ظهره وارتفع كتفاه : بالتأكيد أستطيع . أبي يقول دائمًا أنّي رجل البيت في غيابه .

****

وقفا بقامتيهما القصيرتين أمامَ منزلٍ حجريّ كبيرٍ يشبه ما نسجته مخيّلة يافا . رائحةٌ مميزة تملأ المكان ، حتى أنّ الطفلين كانا يحاولان التنفس بعمق لـ ملء رئتيهما بالهواء المعتّق برائحة الريحان الزكية .

- أطلقت يافا من بين شفتيها زفيرًا رخيمًا بطيئًا أتبعته بالقول : البيتُ تمامًا كما تخيلتُه !
- أردف جهاد بحماس وانبهار : بل أجملُ بكثير .

بدا الدارُ في غاية الجمال ، بيتٌ عتيق يشبه أقرانه من بيوت الحارات المقدسيّة المعتّقة بالأصالة ، بين جدرانها تعيش قصص وحكايـا وذكريـــات وتاريخُ شعبٍ أصيل .

لم يكن ينقصُ الدارَ سوى جدٍّ يأخذ بيد الطفلين لـ يحكي لهما قصص بطولاته ، وجدّةٍ بحضنٍ دافئ وحنون تغمرهما .

ظل الطفلان يدوران بعينيهما حول المكان ، في محاولةٍ مبدئية لاستكشافه بالنظر !

شدّ يافا منظر الأصص البنيّة المليئة بالورود والأزهار والتي توزّعت في ترتيبٍ أنيقٍ على درج السلّم الحجري المؤدي إلى البابِ الكبير . رفعتْ رأسها فـ شدّها أكثر منظر النباتات الخضراء المتدلية من الشرفة الكبيرة المطلة على الشارع وإلى جانبها تلك الأصص المثبتة على حواف النوافذ .

- شدّت طرف قميص أبيها بيدها الصغيرة لتلفت انتباهه ، وحين قطع حديثه مع ابن خالته والتفت إليها سألته مستفسرة : أبي ! أي نوعٍ من النباتات تلك المزروعة على الأصص المثبتة في حواف النوافذ ؟!
- أجابها بابتسامةٍ يخالطها الكثير من الدفء والشَّجّن : إنها الريحان يا ابنتي .
- التمعتْ عيناها واتّسعتـا . شعرتْ بـ نزوة انتصـارٍ تجتاح قلبها ، كيف لـ مخيّلتها أن ترسم كل تلك الصور والمشاهد بدقّةٍ واقعية ؟!

أما جهاد فوقف ساهمًا يطالعُ شموخَ الدارِ بتأمّلٍ شديد ، يثيرُ هذا الشموخ في أعماقه شعورًا لم يعشهُ قبلاً ! وربّما هو نفسه لا يدري مسمى لـ هذا الشعور فهو لا يزال في العاشرة يعيشُ عالمًا فضفاضًا وواسعًا من العواطف بلا مسميات .

- تقدّم خالد نحو ابنه ، وضع كفه على كتف جهاد فالتفت الأخير ليرى قامة والده منتصبة خلفه . بادر خالد بالسؤال : هل أعجبك دار جدك يا جهاد ؟
- على الفور أجابه : كثيرًا . لكن .... امممم لا أدري كيف أصف لك شعوري بدقة ، أشعرُ بـ .... .
- أنت تشعر بأنك تريد إبقاء رأسكَ عاليًا جدًا ، وأن قلبكَ يطير وأنفاسك تتسارع . أليس كذلك ؟
- أجل !
- هذا الشعور يسمى بـ " الفخرِ والاعتزاز " ، فـ حين نتّصل بتاريخ آبائنا وأجدادنا المشرّف ونقف على أرضنا التي هي ملكٌ خالصٌ لنا يساورنا هذا الشعور الجميل .

شعر جهاد بالارتياح حيال اكتشاف مسمى جديد لـ شعورٍ لم يكن يعرف عنه مسبقًـا .

قطع صوتُ والدته حبلَ أفكاره وهي تدعوهم إلى دخول المنزل .

- لكزته يافا بمرفقهـا وهمست : أُراهنُ على أنّ أفكارًا جنونية تدور في عقلك .
- بلهجةٍ باردة أجاب : لا شيء غير شعورٍ بأن ثمة سر يكمن خلفَ جدرانِ هذا المنزلِ الكبير !

****

كان خالد وسلام ممتنان لأحمد وزوجته فداء حرصهما على الاهتمام بالمنزل طوال فترة مكوثهما فيه ، والحفاظ على مقتنياته الأثرية التي يعدّهـا خالد كنز والده الثمين الذي أورثه إياه .

ينحدر خالد من إحدى الأسر المقدسيّـة العريقة والتي كان لها نضالٌ طويل المدى مع الاحتلالين البريطاني والفرنسي في فلسطين وسوريا . انطلق والده مع من انطلق من الشباب ضمن حركة الشهيد عز الدين القسام لمقاومة الاحتلال الإسرائيلي في بداياته .

وحين أرهقه الزمان وبدأت تتساقط أوراق عمره هاجر مع عائلته إلى ألمانيا حيث يقطن أخوه الأوسط ، وهناك عاش ما تبقّى من عمره ودُفن فيها .

- بالله عليك يا خالد . إن احتجتَ شيئًا اتصل بي سأترك لك رقمي .

لقد قامت فداء بتنظيف الطابقين الثاني والثالث ، وفي المطبخ ستجد كل ما تحتاجه من مؤونة . لقد جهزنا كل شيء لراحتكم .

- وأنت إلى أين تذهب ؟!
- سنترككم كي تأخذوا راحتكم في المنزل .
- عيبٌ عليكَ يا رجل . الدارُ دارُك . ستبقى مكانك مع عائلتك في الطابق الأول . ونحن سـ نسكن في الطابق الثاني . ما حاجتنا لثلاث طوابق يا أخي !
- أنت تحرجني يا خالد ! كل ما أردناه هو أن لا نضيّق عليكم .
- على العكس . أنت لا تدري يا أحمد كم أنا ممتنّ لبقائك في الدار رغم مضايقات الصهاينة المستمرة لكم .
- زفر أحمد في استسلام : اعتدنـا ذلك يا أخي .

في الأعلى كانت سلام وفداء تتبادلان أطراف الحديث بينما جهاد ويافا مشغولان باستكشاف المكان . ما إن يخرجا من حجرة حتى يدلفـا إلى الأخرى !

يتقافزان بحيوية كـ فراشتين تحلقان في حديقةٍ غنّـاء .

لوَّح جهاد بـ كفّه للطفل الملتصق بجوار فداء ، يبدو أنه يصغره بعامين . يبدو في سن يافـا .

لم يسمع الطفلان صوتـه منذ وصولهمـا حتى اللحظة .

- تساءلت يافـا في استغراب : هل هو أبكـم ؟

- ضحكت فداء بلطف : لا بل هو خجول . ثم خاطبته بحنو وهي تحرضه على النهوض للعب مع الطفلين : حبيبي وليد ألن تنهض لـ تلعب مع صديقيك الجديدين جهاد ويافـا ؟ هما سـ يعيشان معنا هنا في الدار خلال هذه المدة وليس من المعقول أن تظل خجلاً منهمـا طوال الوقت . انظر كم هما لطيفـان ، إنهما يدعوانك لمشاركتهمـا اللعب .
- قام وليد وتوجّه ناحيتهمـا على استحياء .
- نظر إليه جهاد وقال : في العادة تكون الفتيات أكثر خجلاً . لم أرَ من قبل صبيًا يخجل !
- رمقته يافا بنظرةٍ حادة وأنّبته : ما قلة التهذيب هذه يا جهاد ؟

ثم أطلقت من بين شفتيها ابتسامة بريئة ، مدت يدها لتصافح وليد وهي تقول : مرحبًا وليد .. اسمي يافـا وهذا أخي جهاد . لا عليك هو يبدو سليط اللسان في بعض الأحيان لكنه طيب وشجاع .

- ما علاقة الشجـاعة يا فالحة ؟! تعلمي كيف تختارين المسميات في ظرفها ووقتها المناسبين .

مدّ جهاد يده لمصافحة وليد وأردف بالقول : سررتُ بمعرفتك يا صديقي ، أعتذر منك لم أكن أقصدُ _ امممممممم ماذا كان يقول أبي _ لم أقصد ..... .

- برزت على شفتيّ يافـا نصف ابتسامة ، قالت بمزاح طفولي : ماذا هل نسيتَ مسمياتك ؟!
- ركض جهاد نحو والدته يشكو إليها بهمسٍ منفعل : أمي أنظري إنها تسخر مني أمام الجميع . ماذا علي أن أقول لوليد " لم أقصد ماذا " ؟
- حاولت سلام أن تكتم ضحكتها حين رأت جهاد وهو بتلك الحالة ، همست في أذنه : قُل له لم أقصد الإساءة إليك .
- عاد جهاد يحمل صكّ انتصاره ، مد يده لمصافحة وليد وقال : اعتذر منك يا صديقي لم أقصد الإساءة إليك .
- كانت فداء تتأمل الأطفال بإعجابٍ ومحبة .
- قاطعت سلام تأملاتها بالقول : أنـا عاتبةٌ عليكِ . لِمَ لمْ تخبرونـا بأنكم رزقتم بـ وليد بعد كل التعب والعناء خلال سنوات العلاج ؟

أطرقت فداء بـ رأسها إلى الأسفل ، بدا من صوتها حجم ثقل الوجع الذي يرزح في قلبها . انسابت كلماتها متهدّجة ، تختنق في حلقها بغصة وهي تحاول خفض صوتها : الأمرُ لا يتجاوز حدود ما تعرفينه يا سلام ، أخبَرَنـا الأطباء مرارًا باستحالة الإنجاب .

ووليد ليس ابننـا ، فـ قبل ثلاثـة أعوام أخبرنا الشيخ صدّيق إمام المسجد أن بين يديه طفلٌ استشهد والداه أثناء اقتحام الصهاينـة إحدى المخيمـات ، ولأنه يعرف أحمد ويعلم بأن لا أطفال لدينا فقد عرض عليه أن نأخذ وليد ونرعاه .

لا تتصورين يا سلام لأي حدٍ أحب وليد ، رغم أنّه ليس ابنُ بطني لكنه ابن قلبي . أحبه كما لو كان ابني .

لقد رأى والديه قتيلين أمام عينيه وهذا ما يصعّب الأمر . لم نتوقف أنا وأحمد يومًا عن محاولة جعله ينسى ما جرى لكن عبثًا . يتقطّع قلبي حين أراه شاردًا أو حين يخشى الاختلاط بأقرانـه .

وددتُ لو أن بإمكاني إخراج ذاكرته من محلها ومحو ما يؤلمـه يا سلام .

لكن يبدو أنّ ما يعْلَق بذاكرة الطفل من صدماتٍ يتحول مع الوقت إلى مأساةٍ وجوديـة !

- شعرت سلام أنّ أي مواسـاة سـ تبدو سخيفة أمام حجم الألم الذي يعتصر قلب فداء ، مع ذلك حاولت أن تربت على قلب صديقتها بشيء من التثبيت وقالت : الحمد لله الذي ألقاه بين يديكما وفي حضنيكمـا . وسبحان الله كيف تجري الأقدار الإلهيـة وتمنح الإنسـان عوضًا جميلاً عن الفقـد الموجع . فلله في كل أمرٍ حكمة ، والعزاء فيما نعاني من مآسٍ ومظلومية أنّ جميعهـا عند الله لا تهـون وحتمًا ستكون سببًا في الفرج والنصر الإلهـي القريب .

****

شعـر وليد بالألفة تجـاه جهـــاد ويـــافا . رغم قلة مخالطته لأقرانـه إلا أنه شعر برغبةٍ طفوليةٍ جامحة لعقد صداقةٍ معهما وإن بدت في أوّلها مغلفة بالخجل والتردد .

على الفور اقترح وليد أن يقوم مع صديقيه الجديدين بـ جولةٍ في أرجاءِ الدار. طاف بهمـا كثيرًا حتى استقرّ بهم المطاف أخيرًا في غرفةٍ كبيرة في الطابق الثالث ، دخلاها بتوجُّس فهي مظلمة وعلى إثر الهجر الطويل لها تبدو مخيفة .

في صدر الغرفة وُضع مكتبٌ خشبيٌ عتيق ، مزخرف ومنحوت بطريقةٍ احترافية ، وخلفه عُلّقتْ صورةٌ مرسومةٌ لرجلٍ وسيم بشاربين عريضين وملامح حادة ، وطلة يغلب عليها الشموخ والاعتزاز .

كان الرجل يقفُ منتصبًا شامخًا بزيه الفلسطيني المميز ، يضع على رأسه كوفية بيضاء مشدودة ، محاطة بعمامةٍ سوداء تلفّ جبينه ، ومن تحتها طاقية صغيرة تكاد لفافة القماش أن تخفيها . بينما يكتسي جسده بقطعة من القمباز المخطط ، ومن فوقه تنسدل عباءة سوداء تعطيه مهابةً وجلالاً .

وحول خاصرته يلتفُّ زنّار مطرز بألوانٍ جميلة ومن وسطها يلمع بريق الخنجر بحدّة ، وفي إحدى يديه يمسك البندقية بطريقة توحي بجهوزيته العالية للجهادِ وتعطي انطباعًا بمدى شجاعته وعنفوانه .

وقف جهاد أمام الصورة مشدوهًا ، أسيرَ مشهدٍ يطرق ناظريه للمرة الأولى ، وكأن الزمن توقف للحظة ، يحرك فيه شعورًا بات يعرف اسمه جيدًا " الشموخ والاعتزاز " .

يبدو الشعور الفطريُّ لحظة الإدراكِ الأول أكثر اتّقادًا ، ربّما لأنّ ما كان قبل ذلك شعور خفي صار بعد إدراكه يقينٌ حتمي .

- تشتّت جيش أفكاره حين سمع صوت وليد يقترب منه وهو يسأله : هل تعرف صاحب الصورة ؟
- أجابَ بصوتٍ واهٍ : لا !
- الصورةُ هي لجدك .
- صاحت يافـا من الطرف الآخر للغرفة : حقـًا ؟! هل الصورة حقًا لجدي ؟

- ببروده المعتاد أجابها وليد : هكذا أخبرني والدي .

****

وقفَ بـ زيّه العسكري متجهّمًا أمام باب الدار ، عاقدًا حاجبيه . ركل البابَ بقدمه عوضًا عن استخدام يده في طرقه !

تناهى إلى أسماع الأطفال صوت الباب يُطرق بطريقةٍ غريبة فأسرعوا نحوه يرون من الطارق . رفعت يافا رأسها انحبستْ أنفاسها حين وقعت عيناها على وجه رجلٍ ضخم الجثة ذي ملامح جامدة وقاسية . اتّسعتْ عيناها فزعًا ، شعرت برجفةٍ تسري في جسدها النحيل ، هذا الوجه ليس غريبًا عنها ! ظلّت تتأمله رغم الضيق الذي اجتاح قلبها عند رؤيته ، عصف ذهنها بضجيجٍ شدّها إلى لحظةٍ ظنت أنها لا يمكن أن تكون أكثر من مجرد خيال عابر !

- خاطبها بلغةٍ مكسّرة ، بصوتٍ جاف وغليظ وهو يطلقُ من بين شفتيه ابتسامة ماكرة : يبدو أنكِ ابنته . نادِ أباكِ .

شعرتْ يافا بأن لسانها قد انعقد .

- جاء جهاد وبلهجة حاده سأله : ماذا تريد من أبي ؟
- حملق فيه الرجل بخبث وأجاب : هذا ليس من شأنك .
- حاول جهاد أن يبدو طبيعيًا دون أن يشعر الرجل الواقف أمامه أنه قد استطاع استفزازه ، قال بسخرية : وهل من الأخلاق أن تركل الباب بتلك الطريقة المزعجة . ألم تعلمك أمك كيف يطرق الأولاد المهذبون أبواب البيوت .
- كاد الرجل يتفجر غضبًا . استجمع صبره مواسيًا نفسه بأنه من غير المعقول أن يبدو مستفَزًا أمام طفل صغير.
- هنا أطل خالد ، تقدم بخطواتٍ رزينة وملامح باردة ، ثم قال : آرييل شمعون هنا ؟! ما الخطب يا ترى ؟!
- مد آرييل يده لمصافحة خالد مهنئًا بوصوله بالسلامة ، لكن الأخير تمنّع ولم يُعِره أي اهتمام !

كان خالد يدركُ يقينًا أنّ المصافحة " اعتراف " . بطبيعة الحال هو لم يكن يرى هؤلاء سوى مغتصبين أتوا من أشتاتِ الأرض يحملون معهم عقدة الكراهية تجاه البشرية . يرون لأنفسهم الأحقية المطلقة في اغتصابِ أرضٍ قُيّدت في سجل التاريخ باسم مالكٍ واحد فقط هو " الفلسطيني " .

- حاول شمعون أن يخفي ارتباكه ، فبادر بالقول : وهل سنبدأ حديثنا ونكمله هنا ؟! على عتبة الباب ؟!
- أدخله خالد على مضض . أجلسه في غرفة الضيوف وهو يشعر وكأنّ ثقل الأرض بأسرها واقعٌ على كاهله . زيارةٌ غير مرغوبٍ فيها البتّة أتتهُ فجأة !
- حاول شمعون أن يكسر حاجز الصمت قائلاً : كنتُ أفكر في استدعائكَ إلى مكتبي لكني شعرتُ أنه ينبغي أن آتي إليكَ مبارِكًا زيارتك ! أليست العادة أن يُستقبل الضيوف بالمباركات والتهاني ؟!
- أسند خالد ظهره على الأريكة ووضع ذراعيه على مسندي الكرسي ، قال بصوتٍ واضح لا يزلزله ارتجاف : أنا لستُ ضيفًا . أنا في بيتي وعلى أرضي .
- كان شمعون يدير عينيه في أرجاء المكان بنظراتٍ جشعة ، كـ وحشٍ يتأمّلُ فريسته بخبثٍ وطمع . استوى في جلسته واعتدل ، ثم قال : ما رأيكَ أن أقدم لك عرضًا مغريًا . تعطيني هذا الدار وأعطيكَ تعويضًا ماليًا مغريًا يمكّنك من شراء أجمل قصرٍ في ميونيخ !
- انطلقت من بين شفتيّ خالد ضحكة غاضبة ساخطة مغلفة بالسخرية والاحتقار : حقًا ؟! يا له من عرضٍ مغرٍ ! هل تدري أن جدران هذه الدار وشقوقها البادية على واجهتها شاهدة على مدى حقارة وتفاهة ما تدّعون من حقٍ زائف . أنتم هكذا تحاولون طمس كل ما يفضحكم بأخذه ومصادرتـه ؛ كي لا يبقى أي دليل إدانة يعرّي زيف ادعاءاتكم !
- ارتسمتْ على وجه شمعون ابتسامة باهته تخفي وراءها شعورًا بالهزيمة ، حاول استدراك الموقف بالقول : لا بأس . يبدو أن أعصابك متعبة بعد السفر وتحتاج إلى أخذ قسط من الراحة ، سـ أتركك لتفكر في الأمر على مهل .
- نهض خالد من مكانه واقفًا معلنًا انتهاء الزيارة ، لينصرف الضيفُ المتطفّل محمّلاً بخيبته !

****

بخفةٍ ورشاقة كانت يافا تلاحقُ فراشة كبيرة استطاعت التسلل من شرفة الدار إلى الداخل ، حالما رأتها التمعت عيناها ووثبت من مكانها تلاحق ذلك الكائن الذي صار يحوم ويتراقص حول الأثاث والستائر .

ظلّتْ تلاحقها محاولةً الإمساكَ بهـــا ، تذرع غرف المنزل جيئةً وذهابًا . حاول جهاد ووليد التدخل علّهم يستطيعون إن اجتمع ثلاثتهم أن يمسكوا بها ، كانوا يركضون خلفها حتى وصل بهمْ المطافُ إلى الغرفةِ الكبيرة .

وفي لحظةٍ خاطفة ومع تسلل ضوءٍ خفيفٍ إلى الغرفة من الممر شعرَ جهاد بـ التماعةٍ تُشعُّ من عينيّ الرجل الوقور ذي المهابة الجليلة الذي يبدو في الصورة المعلّقة .

غَزَتْ جسده الصغير قشعريـرة بـــاردة ! حاول أن يدفع قدميه إلى الأمام مقاومًا رغبته الملحّـة في العودة إلى الخلف .

في اللحظةِ ذاتها حطّت الفراشة رحالها على برواز الصورة المغطى باللون الذهبي ، صاحت يافـا في حماسٍ متّقد : جهـاد وليد ، أحضرا ما تستطيعان من وسائد . هيا !

ركض الصغيران لتجميع الوسائد من الحجرات المجاوره ، كان صدراهما يرتجّان بـ السعال على إثر تسلل ذرات الغبار العالق على الوسائد إلى أنفيهمـا .

قاموا برصّ الوسائـد الواحدة فوق الأخرى على الكرسي الخشبي . أمسكت يافـا بمسند الكرسي وهمّت بالصعود ، لكن جهـاد منعها بحجة أنه يخاف عليها من السقوط فهي لا تزال صغيرة فتقدم وصعد على الوسائد المرصوفة .

- وليد ، أمسِك الكرسي جيدًا وأنتِ أيضًا يا يافا قومي بتثبيت الوسائد بإمساكها من الجوانب بكلتا يديكِ .

صعد جهـاد على الوسائد وهو يحاولُ التوازن ما أمكنه ذلك . مدّ ذراعه بهدوء لالتقاط الفراشة ، بينما ظلّ متشبثًا بطرف البرواز يتكئ عليه بذراعه الأخرى .

وبينما هو يحاول الحفاظ على هدوءه وتوازنه للوصول إلى الفراشة صاحت يافـا بفزع حين شعرت بشيء يتحرك على ظهرها . أفلتت يديها وبدأت تنفض ملابسهـا وهي تصرخ وتبكي ، بينما أوشك

جهاد على السقوط أرضًا حين فقد توازنه ، صار يترنّح يمنة ويسرة ووليد لا يدري هل يبقى ممسكًا بالكرسي أم يفزع لمساعدة يافا !

وحين أوشك جهاد على السقوط تشبّث بالصورة بكلتا يديه فانزلقت الصورة إلى الأسفل لتكشف عن مفاجـأة لم تكن لتخطرَ على بالِ الصغار !

****

أغمض عينيه بعد أن وضعَ رأسه المثقل بالأفكار على الوسادة ، تدور الأفكارُ في رأسه كـ دوامةٍ عاصفة . تضغط على أنفاسـه بضجيجها الصاخب !

يتقلّبُ على سريره تارةً نحو اليمين وأخرى نحو الشمال ، وحينًا آخر ينام على ظهره محدّقًا في سقف الغرفة !

- شعرتْ سلام بأنّ ثمة ما يزعج زوجهـا ويثير قلقه ، أشعلتْ المصباح والتفتت نحو زوجها متسائلة : ما بك يا خالد ؟! لستَ على ما يُرام ! تتقلّبُ وكأنك نائمٌ على صفيحٍ من نار .
- دقيقةٌ واحدة احتاجَها ليملأ رئتيه بالهـواء علّه يزيح عن صدره ما يثقله ، أطلق زفيرًا بطيئًا من بين شفتيه أتبعه بالقول : أخشى أن أُضطر لفقدِ هذه الدار ! هؤلاء يتخذون المفاوضة ذريعة لا أكثر بينما هم ليسوا سوى مغتصبين يسرقون كل شيء بمنتهى الوقاحة !

استوى جالسًا ثم أردف قائلاً : تخيلي أن آرييل شمعون أتى اليوم ليقدم لي عرضًا بأن أمنحه المنزل مقابل تعويضٍ مغرٍ !

أنا لم أرَ أوقح منه في حياتي ! مجرد لصوص محترفين ..

يعتقدون أن الأمر مجرد جدران وحجارة مسقوفة ! لا يعلمون أنها تاريخ وهوية .

- بل يعلمون ! وربما أكثر منك ومني . ها أنتَ ذا تقولهـا " لصوص محترفون " ، يقومون بأخذ دارك ليسرقوا تاريخك وهويتك ووجودك ! ليسلبوا منك الماضي والحاضر والمستقبل . هم يعرفون جيدًا بشاعـة أن تبقى تائهًـا بلا وطن مفرغًا من كل ما يمنحكَ الشعور بالقوة والاعتدادِ بتاريخك وأصالتك وهويتك .
- أنت يا خالد تفاوض في حقك ، هل تعي ذلك ؟! تُفاوض في حقٍ يسعون لانتزاعه منك غصبًا ، رضيت أو كرهت .

وصاحب الحق لا يفاوض ؛ لأن التفاوض مع المحتل المغتصب " اعتراف " !

****

جزءٌ من الجدار المغطى بالصورة انزلق نحو الأسفل بمجرد أن تحركت الصورة ، ليكشف عن فتحةٍ بها رفٌ صغير وُضع عليه كتابٌ مغطى بجلدٍ سميك حُفرت على واجهته صورةٌ لـ المسجد الأقصى .

وقف الأطفال مشدوهيـن أمام ما رأوه . أعينهم لا تصدّق ما يجري أمامها .

على الفور نهض جهاد لاستكشاف الأمر ، ويافـا متشبثة بذراعه تحذره خائفة من خطرٍ تخشى أن يحمله الكتابُ الموضوع على الرفّ !

لم يكن شيء ليمنع جهاد عن الإقدام إن غلب إصرارُه خوفَه . أخذ الكتاب مستعينًا بكلتا يديه ليتمكن من حمله ، حاول فتح الكتاب دون جدوى .

تعجب الأطفالُ من كون أن الكتاب لا يُفتح ! حاول جهاد ومعه وليد ويافـا دونما فائدة .

ظلوا يقلّبون الكتاب على اتجاهاتٍ مختلفة علهم يصلون إلى طريقة يفتحونه بها ، ولكن عبثًا .

- تمتم جهاد بتذمر : مستحيل ! لابد من وجود طريقة يُفتح بها هذا الكتاب .
- شد انتباه وليد وجود فراغٍ على شكل مدخل مفتاح بين أوراق الكتاب على جانبه . صاح كمن يرغب في إعلان اكتشاف مهم : هذا الكتاب لن يُفتح إلا بمفتاح !
- انفجر جهاد ويافـا ضاحكين : كتابٌ يُفتح بمفتاح ؟! من أين أتيت بهذا الاكتشاف الخطير يا وليد ؟
- امتعض وليد من ردة فعل جهاد ويافـا . أجابهما باستهزاء : ألا تريان فراغًا لمدخل مفتاح بين أوراق الكتاب ؟!
- حدق الطفلان في الفراغ فـ وجدا أنه فعلاً بيت مفتاح .
- قالت يافـا وهي تتأمله : صحيح . لكن أين يمكن أن يكون هذا المفتاح ؟!
- تبادل جهاد ووليد النظرات قالا بصوتٍ واحد : يجب أن نبحث عنه .

بدأ الأطفال في التفتيش عن المفتاح في أرجاء الغرفة لكن دون جدوى !

- تردد في الرواق المؤدي إلى الغرفة طنينُ خطى متتابعة تقترب ، همس وليد بصوت مسموع : يبدو أن أحدهم آتٍ إلى هنا !

- فتح خالد الباب الموارَب ليجد الأطفال يلعبون بهدوء ، حملق فيهم مستغربًا وتساءل : تلعبون في الظلام ؟!
- قال جهاد مبررًا : مللنا البقاء في الأسفل ، فقررنا اللعب هنا .
- أشعل خالد المصباح وقال : والآن ؟ ألا يجب أن تخلدوا إلى النوم ؟
- وقع ناظراه على الصورة المعلّقة . شعر حيالها بالزهو والافتخار .

قال وقد لاحظ شيئًا عليها : لابد من تعديل وضعيتها . تبدو مائلة !

هَمَّ خالد بالاقتراب من الصورة لتعديلها وأنفاس الأطفال تحتبس خوفًا من أن يعلم بأمر عبثهم بأشياء الغرفة .

- قاطع صوت جهاد خطوات خالد وهو يقول : أبي أنت تشبه جدي كثيرًا .
- حقًا ؟!
- أجل .
- امممممم حسنًا سأريكم شيئًا .
- توجّه خالد نحو خزانةٍ خشبية مزخرفة مثبّتة على جدار الغرفة ، فتح دُرفتيها وأخرج شيئًا ملفوفًا بقطعة قماش .
- تساءل الأطفال باستغراب وقد ثار فضولهم : ما هذا ؟!
- كشف خالد الغطاء عن بندقية قديمة ، قال مجيبًا : هذه بندقية أبي . رافقته طوال سنين الجهاد ضد الاحتلال .
- وقف جهاد مشدود النظرات ، عيناه متسعتان وشفتاه نصف مفتوحتين كأن أنفاسه قد تعثرت بالدهشة . قال لأبيه : هل أستطيع استعمالها حين أكبر يا أبي ؟!
- ودون تردد أجابه خالد : نعم .

لكنها ليست للعبث ، أريتكم إياها ؛ كي تعرفوا كم كان جدكم عظيم وشجاع .

أعاد خالد البندقية إلى مكانها وأغلق الخزانة . أدار ظهره مغادرًا الغرفة وهو يخاطب الأطفال : والآن هيا إلى النوم .

تحررت أنفاسهم المحبوسة على هيئة تنهيدة طويلة تحمل بقايا خوفٍ متجمد !

****

جلس الجميع على مائدةٍ واحدة . رائحةُ الطعام تُشعل في الأطفال رغبة التهام كل ما على السفرة .

- الله .. ما أشهى رائحة الخبز الساخن !
- تذكّرتُ قول محمود درويش :

أحنُّ إلى خُبز أُمّي

وقَهوةِ أُمّي

ولَمْسةِ أُمي

وتَكبُر فيَّ الطفولةُ

يومًا على صدرِ يومِ

أول شيء حنّ إليه في سجنه هو خبز أمه .

- من بين كل هذا الطعام لم تشدك سوى رائحة الخبز ؟! قال أحمد مستغربًا !
- هل قرأت عن رمزية الخبز في فلسفة الإنسان والحياة ؟! وسرّ الشعور الذي يخالجُ الإنسان عندما يشتمُّ رائحة الخبز ؟ سأله خالد .
- صراحةً لم أفكر في ذلك من قبل .
- يبدأ الخبز الذي نتناوله ببذرة قمح تُدفن في بطن الأرض ثم تُبعث وتنمو من جديد بقدرة الله ، وبفضل العناية والرعاية الإلهية واهتمام المزارع تنمو البذرة وتصبح سنبلةً جاهزة للحصاد . يبذل المزارع في سبيل حصادها جهدًا عظيمًا .

بعدها يُفصل الحَبّ عن القش ، ثم يُطحن ويصبح دقيقًا ناعمًا .

ثم تأتي بعد ذلك مرحلة تحضـــيره للأكل بالعّجن ، ثم بعد العجن يُترَك ليتنفس ويعلو ويتهيأ لمرحلة النضج .

في الأخير يتم تشكيل العجين بطريقة مناسبة ويُلقى في التنور ليصير خبزًا جاهزًا للأكل .

ألا يشبه الأمرُ إلى حدٍ كبير دائرة حياة هذا الإنسان الذي يعتمد على الخبز لسد خواء بطنه ؟!

يكون الإنســـان مجرد بذرة أو نطفة تنمو في رحم الأم ، ثم يخرج إلى الحياة ترافقه الرعاية الإلهية حتى يكبر ويشب . في فترة الطفولة يكون الإنسان كـــ العجينة التي لم تتشكل بعد ولم تتعرض لنيران التجربة ؛ كي تمنحها النضج الكافي . وحالما يبدأ في معاركة الحياة وخوض التجارب يُصقَل هذا الإنسان بنيرانٍ شتى تزيده نضجًا .

فالخبز هو قلب الإنسان ، والعجين هي النفس الخام المجبولة بالشهوات ، بينما النار هي التجربة والابتلاء ، أما الخباز فهو المربي الذي يعرف جيدًا متى يُدخل العجين للنار ومتى يخرجه ؛ كي ينضج دون أن يحترق .

لذا يحن الإنسان لرائحة الخبز ؛ لأنها تربطه بنفسه .

قد يحسها ويشعر بها وإن لم يكن يعرف تفسيرها .

كان الجميع يستمع بإنصاتٍ وتركيزٍ شديدين .

- قال أحمد وقد راق له الحديث : تفسيرٌ رائع .
- قاطعت سلام انسجامهما : الخبز الذي تتحدثان عنه قد برد !
- تنبّه الجميع إلى أن الحديث قد أنساهم أن طعامًا على المائدة ينتظرهم !

أخرج أحمد من جيبه مفتاحًا عتيقًا وضـــعه على الطاولة ثم قال : هاك مفتاح الدار يا خالد . لقد قمتُ بعمل نسخة أخرى منه لأبقيها معي .

- حسنًا شكرًا لك يا أحمد .
- لاحظت يافـــا أنّ شكل المفتاح يختلف عن تلك المفاتيح الحديثة التي تعرفهـــا ، مفتاحٌ نحاسي برأسٍ بيضاوي ذي فتحة واسعة من المنتصف نُحت عليه تاريخ تأسيس الدار وبنائه .
- تساءلت مستفهمة : أبي .. لمَ يبدو هذا المفتاح غريبًا ؟ إنه لا يشبه ما أراه من مفاتيح مخصصة للأبواب !

- ابتلع ما في فمه من طعام ثم أجاب : هذه المفاتيحُ قديمة يا عزيزتي . وهي رمزية لكوننا أصــحاب الحق في هذه الأرض ؛ لأن وجود هذه المفاتيح التي نرثها عن آبائنا وأجدادنا تبطل زيف الاحتلال في ادعاء أن هذه الأرض حق خالص لهم . ســكت برهة ثم واصــل حديثه : هل تعلمين أنّ كل من هُجّروا يحتفظون بمفاتيح دورهم إلى اليوم ؟ مع أن كثيرًا منهم تفرقوا في المخيمات أو ســافروا خارج حدود فلسطين .

- أطلقت يافا من بين شفتيها اعترافًا بالخوف ، قالت بعينين ذابلتين وصوت يرتجف : أنـا خائفة !

- خيّمَ وجومٌ ثقيلٌ على المكان قطعته سلام بقولها : وممَّ تخافين يا حبيبتي ؟!

- رفعت ناظريهـــا نحو أمها وقالت : أخاف أن يأخذ الإسرائيليون الدار . في المرة السابقة رأيتهم في خيالي يهجمون على الدار ويقومون بإخراجنا منه !

- نهضــت ســلام من مكانها متجهة نحو كرســي يافا ، انحنت لتقبيل جبينها في محاولةٍ لطمأنتها ، وهمست في أذنهـا : لا تخافي يا حبيبتي ، لن يستطيعوا أخذ الدار بإذن الله .

بينما ظل وليد يتأمل المفتاح بتركيزٍ شديد ، كمن يحاول ربط الأمور ببعضها .

لكزَ وليدٌ جهادًا بمرفقه في إشارة للنهوض .

نهض الطفلان وقد أعلنا امتلاء بطنيهما بالطعام ، وحين رأتهما يافا لحقت بهما .

- همس وليد بصوتٍ شبه مسموع ونبرةٍ مليئة بالحماس : وجدتُ المفتاح !

- برقت عينا جهاد ويافا واختلجهما حماسٌ طفولي : حقًا ؟! أين هو ؟!

- أجاب وليد بثقة : مفتاح الدار .

- أطلق جهاد من بين شفتيه ضحكة مكتومة خشية أن يسمعه أحد ، وقال : ما علاقة الكتاب بالدار .

- تدخّلت يافـا : لنجرب ، لن نخسر شيئًا .

- بواقعية وجدية تساءل جهاد : وكيف سـ نحصلُ عليه ؟

- لا عليكما دعا الأمر لي . بادرت يافـــا .

- توجهت نحو غرفة الطعام ، اقتربت من أبيهـــا وبنبرةٍ رخيمة وصوتٍ طفوليّ عذب قالت له : أبي .. هل تسمح لي بأخذ المفتاح قليلاً . لقد أعجبني شكله كثيرًا ، سأحتفظ به قليلاً وأعيده إليك .

لم يستطع خالد رفض طلب ابنته ، لكنه أكد بحزم على ضرورة أن تحرص على المفتاح .

أخذت يافا المفتاح وهي تتراقص فرحًا . وعلى الفور توجّهت مع وليد وجهاد نحو الغرفة ليروا هل المفتاح فعلاً يتطابقُ مع الكتاب أم لا !

بنفس الحركة الســابقة اســتطاعوا إخراج الكتاب من مخبئه ، ازدرد جهاد ريقه ووزع نظراته على يافا ووليد في إشارة خفية للاستعداد والتأهب ، بينما كانا يترقّبان بصمت .

أدخل جهاد المفتاح في الفراغ الموجود وحدث ما لم يكن في الحسبان !

****

أنهى الجميعُ طعامه ، ذهبت ســـلام مع فداء إلى المطبخ ليكملا التنظيف ، بينما قرّر خالد وأحمد الخروج من المنزل .

- هل تعلمين يا فداء ، كم تمنيتُ لو أستطيع زيارة دار جدي . هي الأخرى صودِرت ضمن بيوتٍ كثيرة اغتصبها الصهاينة ، كان دارُ جدي جميلاً يُشبه هذه الدار حسب ما كانت تصفها لي أمي .

أنا وخالد لا نريد للأطفال أن يعانوا شعور الغربة كما عانينا منه نحن !

- وضعت فداء ما بين يديها وقالت موافقة : معكما حق . أنتم محظوظون لأنكم استطعتم الحفاظ على الدار كل هذه المدة ، لكن الحياة في أوساط الصهاينة أشبه بالجحيم يا سلام .

لقد عمدوا لإخراج الفلسطينيين من بيوتهم وغيروا ملامح كل شيء ، تخرجين إلى ف تشمئزين من رؤيتهم في كل شارع وزُقاق .

عدا صفاقتهم ووقاحتهم وجرأتهم في حال لو رأوا فلسطينيًا أمامهم .

يا الله كم أتمنى يا سلام أن يأتي طوفان يجرفهم إلى الجحيم ؛ كي نتخلص من وجودهم المقزز .

كم أتوق للخروج إلى شوارع القدس وأرى النساء الفلسطينيات يخرجن إلى الشرفات لسقاية الشتلات الصغيرة المحشوة في الأصص الحجرية .

وأستمع إلى أغانينا الشعبية التي يتسلل صوتها من خلف النوافذ إلى الأزقة والمنازل المجاورة على هيئة نغمٍ خفيف .

وأشتمّ رائحة الخبز الشهي يفوح في الأرجاء فتنتعش الروح وتنبعث في النفوس الحياة !

الحياةُ هنا باتت باهتة يا سلام .. تشبهُ كلَّ شيءٍ عدا فلسطين !

****

فُتحَ الكتاب ! اتّسعتْ أعينهم ، وارتجفتْ قلوبهـم . كأنّ إعصارًا لفّ المكان ثم سكنْ !
لم يكن الخط مطبوعًا بل يبدو أنه كُتب بخطِ اليد . كان الخطُّ متعرّجًا والأحرف والكلمات شبه متباينـة في حجمهـا وانحناءاتهـا لكن يبدو أنه رُسِم بعنايـة ؛ كي يكون مفهومًـا للقارئ .
بدأ جهاد يسـردُ ما كُتِبَ في الصفحة الأولى بصوتٍ مسموع :
" خُطّ هذا الكتاب ليكون شاهدًا على الحقيقـةِ التي سـ يسعى العدو لإحراقهـا يومًا ! " .
في الصفحةِ المقابلـة كُتب : " من لا يبحث عن الحق يعيش ميتًا " .
وذُيّل باسم : عز الدين الحسيني .
شد الاسم انتباههم ، تمتم جهاد : هذا اسمُ جدي !
كان الأطفال منهمكين وهم يتأملون تلك الكلماتِ المخطوطة ، يحاولون فهم ما وراءَها وفك رموزهـا وتخمين ما يكمن فيما يتبع من صفحات .
" لا تنقضي الحيـاةُ وتنتهي إلا بعد أن تتضح كل الحقائق ، الحقائقُ التي يحاول العدو دفنها تحت الرمـاد . وما أن تأتي رياحُ الحق حتى تبدأ تلك الحقائق بالاشتعال وتضطرم بعدها نيران الثورة على كل ما هو مخالفٌ للسننِ الإلهيـــة .
والعـدو ! هو نفسه من يخلق الشُّبهة والاشتبـاه عند الناس في معرفـة من يكون عدوّهم الحقيقي . وهنا تكمن خطورتـه في الإضلال والتضليل وطمس الحقائق وإلهـاء الشعوب " .

- وضعتْ يافـا رأسهـا بين كفّيها تضغط عليه وهي تقول : أنا لا أفهـم معنى هذا الكلام ، إنه صعب !
- نظر إليها وليد كمن يشاركهـا الشعور ذاته ، لكنه حاول مواساتها بالقول : تريثي ربما نفهم شيئًا !

استمر جهاد في القراءة وأثناء ذلك وقع باطن كفه على الأوراق فبدأتْ يده تغوص إلى الداخل !
قشعريـرة باردة سرت في جسده ، دقاتُ قلبه تتسارع وأنفاسه كذلك !
شعورٌ بالخوفِ تمازجه رغبةٌ حارّة في خوض المغامرة . منذ الوهلـة الأولى من رؤيـة الدار انتابه شعور بوجود سرٍ يكمن في الأعماق . وها هو يخطو الخطوة الأولى لاكتشافه .
همّت يافا بالهروب وإخبار والديها بالذي يحدث ، لكن وليد أمسكها من معصمها مانعًا إياهـا .

- قال جهاد بنبرة حازمة ومحذِّرة : هل تريدين إفسادَ الأمر ؟! إياكِ أن تخبري أحدًا بما رأيتِه !

- بدا وليد متحمسًا وهو يقول : أشعرُ وكأنّي أعيشُ قصةً خياليّـة كـ تلك التي نراها في أفلام الكارتون ، ربماااا .... ربما نستطيع الدخول إلى أعماق الكتاب !

وهذا بالفعل ما حدث ، بدأ الكتاب في سحبِ جهـــاد إلى الداخل ، تعلّق وليد بطرف قميصه وظل ممسكًا بيد يافـا دون أن يفلتهـا .

ليجدوا أنفسهم فجأة في عالمٍ غريب يعجُّ بالضجيجِ والفوضى .

تسمّر الأطفالُ في مكانهـم مذهولين مما يرون ، كانت يافـا ترتجفُ خوفًا .

جثت على الأرض ، تكورت على نفسهـا وبدأت في البكاء .

حاول جهاد ووليد تهدئتها دونما فائدة .

ثم فجأة ظهر أمامهم رجلٌ ضخم الجثة .

- سألهم : ماذا تفعلون هنا ؟

حدق فيه الأطفالُ بصمتٍ وذهول .

- تمتم جهاد : إنه هو !
- بينما بدا الخوف على وجه وليد وهو يقول : أين نحن ؟!
- شعر جهاد برجفة يدي يافا وهي متشبثة به تختبئ خلفه .
- بادر جهاد بالقول : نحنُ ..... لا عليك سيدي إنها قصة طويلـة .
- قاطعة الرجل بالقول : لا يهم . تعالوا معي سآخذكم إلى مكانٍ آمن .
- تساءل الأطفال في أنفسهم عن ما يجري ! كان الوضع يبدو موحشًا ، غريبًا وغير مألوف !

أخذهم الرجل الطيب إلى مكانٍ آخر ، كان جهاد يتأمله بعينين لامعتين . لا يدري هل هو في حلمٍ أم يقظة .

- سأله مستفهمًا : ما اسم هذا المكان ؟!
- هذه القدس .
- قال وليد : مستحيل !

لم يصدق ما رآه ، يبدو المكانُ قديمًا جدًا !

أما يافـا فقد كادت تتفجّر غضبًا .

- كانت تتمتم بتذمر وهي تتحدث إلى نفسها : ما الذي أتى بي مع هذين الطائشين ؟ ليتني أخبرتُ والديّ . لو أخبرتهما ما كان ليحدث كل هذا .
- نظر الرجل إليهم معاودًا سؤاله : لم تخبروني . من أين أتيتم ؟
- أطرقوا صامتين ، ثم قال جهاد : أتينا من قريةٍ بعيدة لنرى المدينة .
- هز الرجل رأسه ونظر إلى جهاد بعينين نصف مغمضتين كمن يحاول اكتشافَ كذبة ما !

ثم قال : هل تعلمون أن فلسطين تعد من أقدم الحضارات في العالم ؟

سارعت يافا بالقول وقد نسيت غضبها : أجل . لقد أخبرني والدي بذلك . وقالت لي أمي أنها تعود إلى العصر الحجري القديم وعمرها ٥٠٠ ألف سنة .

لكن بما أننا سافرنا عبر الزمن وانتقلنا إلى العصر الحجري لِمَ لا أرى الناس كما تصورهم أفلام الكارتون ؟!

- لكزها جهاد بمرفقه ، قال لها وهو يجز على أسنانه : كفاكِ ثرثــرة !
- انطلقت من بين شفتي الرجل ضحكة جهوريـة وقد أعجبته عفويتها : لا يا بنيتي ، نحن الآن لسنا في العصر الحجري ! الناس هنا يبدون طبيعيين للغاية .

انظروا جميعهم فلسطينيون ، أقدم شعبٍ سكن فلسطين هم الكنعانيون قبل نحو ٤٥٠٠ سنة ، وهؤلاء جميعًا من سلالة الكنعانيين وشعوب شرقي البحر المتوسط والقبائل العربية وهم عربٌ مسلمون .

- قاطعه وليد : واليهـود ؟!
- هههههه اليهـود ! اليهود حكموا فلسطين لفترة لم تتجاوز الأربعة قرون في الفترة (٥٨٦ _ ١٠٠٠) ق . م ، ثم زال حكمهم تمامًا كزوال حكم من كانوا قبلهم من الآشوريين والفرس والفراعنة والإغريق والرومان ، فـ بعد وفاة سليمان عليه السلام سنة ٩٢٣ ق . م انقسمت مملكته إلى دولتين : إسرائيل في الشمال والتي سقطت على يد الآشوريين ، ودولة يهودا التي سقطت على يد البابليين .

أما الحكم الإسلامي فقد استمر في فلسطين نحو ١٢٠٠ عام .

وخلال مدة تصل إلى ١٨٠٠ عام لم يكن لليهود أي تواجد في فلسطين ، بل على العكس حُرِّمت تعاليمهم الدينية فيها .

كما أن أكثر من ٨٠ % من اليهود المعاصرين لا يمتّون – تاريخيًا – بأي صلة لفلسطين ولا يمتون قوميًا لبني إسرائيل ، فالأغلبية الساحقة تعود إلى يهود الأشكناز وهي قبائل تقيم في شمال القوقاز تهوّدت في القرن الثامن الميلادي . ومعنى هذا أنه لا حق لليهود في فلسطين ، وإن كان لهم حق عودة فهو ليس إلى فلسطين بل إلى جنوب روسيا !

واليهود هم أقلية صغيرة جدًا مقارنة بأهل فلسطين .

- أثار الحديث فضول جهاد لمعرفة المزيد ، تساءل : إذًا على أي أساس احتلت إسرائيل فلسطين وهي مجرد دخيل لا أصل لها ، ولا وجود تاريخي على أرضها ؟
- سؤال ذكي ، تأسست المنظمة الصهيونية العالمية بقيادة ثيودور هرتزل عام ١٨٩٧ ، وسعت لإنشاء دولة يهودية في فلسطين وربطت نفسها بالمشروع الاستعماري الغربي .

وبناء عليه فقد تبنّت بريطانيا المشروع الإسرائيلي وأصدرت وعد بلفور في عام ١٩١٧ والذي ينص على إنشاء وطن قومي لليهود . وأثناء احتلال بريطانيا لفلسطين من عام ١٩١٨ حتى ١٩٤٨ فتحت أبواب الهجرة لليهود ، فتضاعف عدد اليهود في فلسطين من ٥٥ ألف يهودي عام ١٩١٨ إلى ٦٤٦ ألف سنة ١٩٤٨ .

والخبيث في الأمر أنها دعمت تملُّك الأراضي من قبل اليهود ؛ كي تثبِّت وجودهم . فزادت ملكية اليهود للأراضي من ٤٦٠ ألف دونم من الأرض إلى نحو مليون و٧٠٠ ألف دونم .

وخلال كل هذه المدة قام اليهود ببناء مؤسساتهم وأسسوا ٢٩٢ مستعمرة وكونوا قوات عسكرية من منظمة الهاجاناه والأرغون وشتيرن والتي يزيد مجموع مقاتليها عن ٧٠ ألف مقاتل ، وبهذا استعدّوا لإعلان دولتهم .

- تبادر إلى ذهن يافا سؤال لم تستطع كتمانه : وماذا فعل الفلسطينيون حيال ذلك ؟
- أنشأوا عددًا من التيارات الوطنية بزعامة موسى كاظم الحسيني والحاج أمين الحسيني وقادوا مع رفاقهم ثورات عارمة مثل انتفاضات القدس ويافا والبراق وتم تأسيس كتائب القسام بقيادة الشيخ عز الدين القسام ، ومنظمة الجهاد المقدس بقيادة عبد القادر الحسيني .

وتحت ضغط الثورة الكبرى التي قامت خلال الفترة ١٩٣٦ _ ١٩٣٩ اضطرت بريطانيا التعهد بقيام دولة فلسطينية خلال عشر سنوات وأن توقف هجرة اليهود بعد خمس سنوات ، لكنها نقضت عهدها بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية وعاد المشروع الصهيوني من جديد برعاية أمريكية !

المضحك أن الأمم المتحدة _ التي قامت على أساس الدفاع عن حق الشعوب في الحرية وتقرير مصيرها بنفسها _ أصدرت عام ١٩٤٧ قرارها رقم ١٨١ بتقسيم فلسطين إلى دولتين : عربية ولها ما يُقدر بـ ٤٤,٨ % من إجمالي الأراضي الفلسطينية و ٥٤,٧ % لما أسموه بالدولة اليهودية !

بعدها بعامٍ واحد أعلن الصهاينة دولتهم ، وكان ذلك في مساء ١٤ أيار / مايو ١٩٤٨ .

وتمكنوا من هزيمة الجيوش العربية واستولوا على ٧٧ % من الأراضي الفلسطينية ، وشرّدوا بالقوة ٨٠٠ ألف فلسطيني من أصل ٩٢٥ ألف كانوا يسكنون في هذه المنطقة .

وفي نهاية عام ١٩٤٨ كان المجموع الكلي للفلسطينيين نحو مليون و٣٩٠ ألف نسمة .

كما دمر الصهاينة ٤٧٨ قرية من أصل ٥٨٥ قرية كانت قائمة في المنطقة المحتلة وارتكبوا عشرات المجازر البشعة .

- وما السبب في هزيمة الجيوش العربية ؟ تساءلت يافـا .
- سوء القيادة وضعف التنسيق وقلة الخبرة ، أو دعينا نقُل غياب المشروع !

وهذا ما جعل الأنظمة العربية تقف في موقف الخصومة أو التجاهل مع إعلان القيادة الفلسطينية في الهيئة العربية العليا استقلال فلسطين !

وتسبب للمرة الثانية بهزيمة الجيوش العربية في حرب حزيران عام ١٩٦٧ أي قبل عامين من الآن .

وفي بضعة أيام احتل الكيان الصهيوني باقي فلسطين وسقطت الضفة بما فيها شرقي القدس وقطاع غزة وشُرِّد ٣٣٠ ألف فلسطيني ، وسقطت الجولان السورية وسيناء في مصر ، وبنى الصهاينة مئات المدن والقرى الاستيطانية وأنشأوا جدار الفصل العنصري وسيطروا على معظم مصادر المياه ، وفتحوا أبواب الهجرة لليهود إلى فلسطين !

- تراءى لـ يافـا من على بعد مسافةٍ ليست ببعيدة قبّة كبيرة ، فصاحت بهم بحماسة وهي تقول : انظروا .. إنه المسجد الأقصى .
- وسرعـان ما بادرها الرجل الطيب بالنفي : هذه قبة الصخرة يا بنيتي وهي جزء من المسجد الأقصى . المسجد الأقصى لا يزال في الداخل .

تقدموا جميعًا إلى الداخل . من بعيد شاهد السيد عز الدين دخان شيءٍ ما يحترق يتصاعد إلى السماء ، ورائحةُ الحريق تملأ المكان .

توافد الفلسطينيون لإطفاء الحريق .

- تفجّر صوت السيد عز الدين بعصبيةٍ ظاهرة ، قال بنبرةٍ غاضبة : اللعنة عليهم لقد فعلوها وأحرقوا المسجد الأقصى . يبدو أن العملية الفدائية التي نفذها المجاهدون قبل أيامٍ قد أوجعتهم !

بدا المشهدُ للأطفالِ مخيفًا حين اقتربوا منه ، كانت أعينهم تطالع الشرار المتطايـر وألسنة النـار وهي تتصاعد إلى الأعلى وتزداد اضطرامًا ، وقلوبهـم تنفطرُ ألمًا !

التفتَ جهاد عن يمينه فلم يجد الرجل .

- تساءل بارتباك : أين ذهب ؟!
- تلفّت الأطفال حولهم يبحثون عنه . لكن يبدو أنه اختفى في معمعة الحادثة .

****

سمعت فداء صوت ركلٍ عنيف يصدر من الباب ، لم ينتظروا حتى تذهب وتفتح الباب ، فقد سبقوها بكسره ودخولهم دونما استئذان .

كانت تضع منديلاً ملفوفًا على رقبتها ، وبسرعة خاطفة التقطته ووضعته على رأسها .

- تساءل الضابط : أين زوجك ؟
- أجابته بعنفوان دون أن يرتجف لها طرف أو يهتزّ لها جفن : بأي حقٍ تدخل البيت بهذه الطريقة ؟! وما شأنك بزوجي ؟! هو غير موجود الآن .
- وخالد ؟!
- لقد خرجا سوية .
- حسنًا إذًا ، لدينا أمر بإخلاء المنزل .

من حسن الحظ أنّ خالد وأحمد لم يتأخرا . حين رأيا الجنود يحيطون بالمنزل وباب الدار مفتوح شعرا بأن الدم يغلي في رأسيهما ، أسرعا بالدخول .

- قال خالد في احتجاج ساخر : آرييل شمعون . ما أسرع ما نقضتَ عهودك !

بالأمس كنت تفاوض واليوم تقتحم بقوة السلاح .

لم يعِر شمعون كلام خالد أي اهتمام ، بل وجّه على الفورِ باعتقالهم !

****

لم يحتمل جهاد ووليد منظر المسجد وهو يحترق . طلبا من يافا أن تبقى مكانها بينما يذهبان للمساعدة في إطفاءِ الحريق .

- قال لها جهاد محذرًا : لا تتركي مكانك مهما حدث .
- برجاءٍ توسلت يافا : خذاني معكما .
- جهاد رافضًا : لا . أخشى أن تحترقي . المهم أن تبقي مكانك ولا تتحركي .

كانت يافا تشاهد الحريق ودموع عينيها تنساب على وجنتيها . شعرت بالخوف !

تبحث بعينيها عن جهاد ووليد بين الزحام دون أن تجدهما . لماذا تشعرُ برغبةٍ في البكاءِ والنشيج ؟

فجأة تذكرت المفتاح !

- اتّسعت عيناها المبللتان بالدموع ، وبسرعة بدأت تمسح الدموع كي ترى بوضوح . قالت بنبرة اختلط فيها البكاء بالخوف : لقد أعطاني جهاد المفتاح بعد أن فتح الكتاب ، وقال لي أن أحتفظ به ، والآن أنا لا أجده ! يا ويلي !!!

هل يُعقل أن يكون قد سقط مني أثناء مشينا وانشغالنا بسماع حكايا جدي ؟

همّت بالعودة إلى الوراء ؛ للبحث عن المفتاح .

كانت تبحث بخوفٍ شديد وهي ترتجف .

****

يتجول في المنزل بثقة وغطرسة ، عمدًا يسيرُ بخطى متثاقلـــة ومتعاليـة .

صعد إلى الأعلى ، تنبّه لفوضى ساكنة في إحدى الغرف .

فتح الباب الموارَب ، تقدّم إلى الأمام .

التقطَ مفتاحًا يبدو أنه سقط سهوًا من صاحبه ، ثم وضعه في جيب بنطاله العسكري .

شدّه منظر الكتاب المرمي على الأرض .

بخفّةٍ التقطه من مكانه وما إن لامست يده أوراق الكتاب حتى ابتلعته إلى الداخل .

وجدَ نفسـه في مكان آخر .

وأمامـه طفلةٌ تبحثُ عن شيءٍ يبدو أنه ضاع منها . بدا شكلها مألوفٌ لديه .

كانت منهمكة بالبحث ، حتى وقعت عيناها على قدمين ضخمتين ، رفعتْ رأسها لتراه يحدّق بها وعلى وجهه ترتسم ابتسامة ماكرة .

- انحنى نحوها ، سألها بلهجةٍ تتصنّع البراءة : عمّ تبحثين يا طفلة ؟
تراجعتْ نظراتهـا عنه ببطء ، بدت ملامحها حذرة وعيناها تحاولان استذكار وجهه .
فجأة تبدلت ملامح وجهها إلى فزعٍ مخيف ، لم تقوَ حينهـا على الركض أو الهروب .
- حاولت أن تبدو متماسكة ، قالت بصوت يرتجف : أبحث عن مفتاحي .
- أخرج المفتاح من جيبه ، قال بمكر وهو يلوح به : هذا ؟
- اتسعت عيناهـا ، وانفرجت شفتاهـا عن ابتسامةٍ خفيفة : نعم ، أعطني إيـاه .
- أحكم شمعون قبضته على المفتاح ، قال بنبرةٍ خبيثة : أين الطفلين الآخرين ؟!
- لا أدري ! لقد أضعتهما .
- إذًا ما رأيكِ أن تأتي معي ؟
- شعرت يافـا حينهـا بالخوف الشديد ، شيء ما يدفعهـا للهروب والركض ما أمكنها .
بحركةٍ تلقائية انتفضت وبدأت الركضَ بسرعةٍ جنونية .
كانت تصرخُ ملء المكان وهي تبكي ، تنادي مستنجدة : جهاد ، جدي ، وليد . النجدة ، أنقذوني !
ركض شمعون خلفها بسرعة ، لكنها ضاعت منه بين الزحام .

خُيِّل إلى جهاد أنه سمع صوت صراخ أخته ، ترك كل شيء من بين يديه وعاد إلى النقطةِ التي تركهـا فيها .

ركضا بسرعة هو ووليد حتى وصلا المكان لكن دون أن يجدا أثرًا لـ يافـا .

- إنها غير موجودة ! أين يمكن أن تكون قد ذهبت ، يا إلهي !

يافـا يافـا أين أنتِ يا أختي ؟!

- عوضًا عن هذا قُم لنبحث عنها . قال وليد .

أرهقهـا الرَّكضُ الطويـل . شعرت بألمٍ شديدٍ في قدميها فجلستْ على الأرضِ بإعياء وتعب ، كان الزُقاقُ ضيّقًا ومظلم . تكوّرت على نفسهـا وبدأت بالبكـاء .

تمنت لو كان والداها موجودان فـ تهرب إليهمـا وترتمي في حضنيهمـا .

وبينما هي واضعة رأسها على ركبتيها والدموع تنساب على وجنتيهـا ، تجمّدتْ أطرافُهـا وانحبست أنفاسهـا حين شعرت بوجود أحدهم يقفُ أمامهـــا .

****

- تبًا ... مرّت أربع ساعاتٍ من البحث دون أن نجد لها أي أثر !
أخبرتُهـا أن لا تتحرك من مكانها ، أين يمكن أن تكون قد ذهبت ؟
- جهاد ، ألا تعتقد أننا أخطأنـــا حين تركنـا يافـــا بمفردها ؟ الخطأ خطؤنا نحن .
- ارتمى جهاد على الأرض وقد أنهكه التعب ، قال في ندم : معك حق . لكن المهم الآن أن نجدها .
- التمعتْ في رأس وليد فكرة ، قال بنبرة جادة : هل يمكن أن تكون قد عادت إلى البيت .
- يا لك من ذكي ! نحن لا نعرف كيف أتينـا ولا نعرف حتى سبيل الخروج من هنا .
- قال وليد وقد تنبه للأمر هذه اللحظة : صحيح ! نحن لا نعرف كيف يمكننا الخروج من هنا .
- نعم . ينبغي أن نخرج من هنا بأي طريقـة ونخبر جميع الأطفال بما سمعناه اليوم من جدي .
- إذًا هيا انهض لنكمل البحث عن يافـا ، لابد وأنها الآن خائفة ، خاصةً وأن الظلام قد حل .
- هيا بنا .

****

كان يحملُ مصباحًا صغيرًا بيده ، رفعه قليلاً ليرى من يجلس هذه الساعـة في زقاق مظلم !

- هدأ خوفها حين سمعت صوته يقول لها : أهذا أنتِ ؟

أين أخويكِ وما الذي تفعلينه هنا بمفردك ؟!

- كأن الرجفة التي كانت تسكن قلبها قد هدأت فجـأة ، بدت ملامحها أكثر سكونها وصوتها أهدأ وهي تجيبه : لقد أضعتهما ولا أدري أين هما الآن .
- مد السيد عز الدين يده إليها ؛ كي يساعدهـا على النهوض ، ثم قال لها : لا عليكِ سنبحث عنهمـا في الصباح . تعالي معي الآن إلى المنزل ثم لكل حادثٍ حديث .

ذهبت يافـا معه ، سارا سوية حتى وصلا إلى باب الدار .

قالت في نفسهـا : يا إلهي .. إنه دار الرياحيـن ، يبدو كما هو تمامًا ، لم يتغير فيه شيء .

- أخرج من جيبه مفتاحًا ليفتح الباب ، لمحته يافـا : وهذا مفتاح الدار ، إنه المفتاحُ ذاته .
- سألته يافا : سيدي من أين لك هذا المفتاح .
- تبسّم وقال : هذا مفتاح داري وقد ورثته عن أبي وأجدادي . وأنتِ أليس معكِ مفتاحٌ لدارك تحتفظين به ؟
- أطرقت برأسها ثم قالت بنبرةٍ حزينة : بلى . لكنه ضاع مني ، وقد أخذه رجلٌ شرير ، هو نفس الرجل الذي رأيته في خيالي وهو يداهم منزلنـا ويخرجنا منه أنا وعائلتي .
- انحنى نحوها ممسكًا بكفيه كتفيها الصغيرين ، ثم خاطبها بلطف : لا بأس ، سننام الليلة وغدًا نبحث عنه . لكن في المرة القادمة إياكِ أن تضيعي مفتاح داركم .

لندخل الآن . سأعرّفكِ على زوجتي إنها امرأة حنونة وستحبينهـا كثيرًا .

- دلفا من الباب ثم نادى : عزيزتي أين أنتِ ؟
- أهلاً عزيزي ، أخفض صوتك لقد نام خالد لتوّه .
- تمتمتْ يافـا : خالد ! إنه أبي ، يا للروعـة .

اقتربت السيدة لطيفة من الطفلة الصغيرة ، قالت مرحِّبة : مرحبًا يا صغيرتي الجميلة !

- همست بصوت يكاد يُسمع : من هذه الطفلة يا عزيزي ؟
- طفلة ضائعة ، غدًا سأعيدها إلى أهلهـا ودارهـا . أرجوكِ يا عزيزتي اهتمي بها .
- جثت السيدة لطيفة على ركبتيها أمام الطفلة ، قالت لها بحنو ولطف : ما اسمكِ يا حبيبتي ؟

- يافـا .
- اللّه . يا له من اسمٍ جميل يليقُ بكِ . من أسماكِ إياه ؟
- جدتي ! أردفت : سيدتي ...
- نعم يا يافـا .
- أنتِ جميلةٌ جدًا . ثم ارتمت في حضنها .
- بينما لفّت السيدة لطيفة ذراعيها حول الطفلة كي تُشعرها بالدفء والأمان ، وهمست : يا لكِ من طفلة رائعة !

****

- أخشى أنَّ مكروهًا قد أصابها ! قال جهـاد بخوفٍ وقلق .
- دعنا ننم الآن وسنواصل البحث عنها في الصباح .
- وهل تعتقد أني سأستطيع النوم وأختي ضائعة ؟!
- ماذا بوسعنا أن نفعل ؟ لقد تأخر الوقت .
- هل المفتاح معك ؟
- لا . إنه مع يافـا .
- تبًا ! لقد ساء الوضع أكثر .

لم يتمكّن جهـاد من إطباق جفنيه والخلود إلى النوم . كان الخوف والقلق يسيطران عليه .

ما إن أشرقت شمس الصباح حتى أيقظ وليد ليواصلا البحث عن يافـا .

كانا يسيـران في الشوارع والأزقـة والأملُ يقودهما إلى إمكانية العثور على يافـا . كان جهاد يحاولُ طرد أي فكرةٍ مزعجة تشوّش رأسه !

- قال وليد وهو يتأمّل المكان : لم تتغير القدس كثيرًا ، من يدقق النظر في الأزقّـة والمنازل يلحظ ذلك .

كأنما يتحدث نفسه ، فقد بدا جهـاد شاردًا . ينتظر اللحظة التي يلمح فيها طيف اخته !

****

استيقظت يافا من نومها ، أشعةُ الشمسِ تداعبُ وجهها المدوَّر الصغير .

سمعت صوت طفلٍ رضيعٍ يبكي . خرجت من الغرفة كي تراه ، وجدت السيد عز الدين والسيدة لطيفة يشربان القهوة في شرفة المنزل وفي حضنها طفلٌ صغير يبكي تهدهده وتحاول إسكاته .

- بادرت بالقول : صباح الخير .
- نظرت إليها السيدة لطيفة بابتسامة حانية : صباح الخير يا عزيزتي .
- اقتربت يافا منها تنظر إلى الصغير بابتسامةٍ بريئة : ما أجمله . إنه صغيرٌ جدًا .

كانت تتأمله بإعجابٍ لا يخلو من الدهشة . تراقبُ حركاته العشوائية وتزداد إعجابًا به .

- سألتها لطيفة : هل لديكِ أخوة يا صغيرتي ؟
- نعم لدي أخ واحد واسمه جهاد .
- قال عز الدين : والفتى الآخر من يكون ؟
- إنه أحد أقربائنا .

شد انتباه يافا رائحةٌ زكية تعرفها ، تذكرت الرياحين . أمالت برأسها إلى الأمام ؛ كي تراها ثم صاحت بنبرة طفولية : يا إلهي . إنها الرياحين !

- قال عز الدين : هل تحبينها ؟ هل أقطف لكِ بعضًا منها ؟
- التمعت عيناها فرحًا وقالت : نعم يا سيدي .

نظرت إلى السيدة لطيفة وسألتها : وأنتِ يا سيدتي هل تحبين الريحان ؟

- أجابتها لطيفة : بالتأكيد . هل تعلمين يا صغيرتي أن هذه الدار تسمى " دار الرياحين " ؟ الريحان لم ينقطع في هذه الدار منذ سنين طويلة .
- عاد عز الدين وبين كفّيه عدد من أوراق الريحان ، افتحي كفيكِ يا صغيرتي . هاكِ الريحان ، رائحته جميلة جدًا .
- أخذت يافا أوراق الريحان ، تشتمها وتتنشّق عبيرها بشغفٍ ونَهَم .
- قال عز الدين مخاطبًا زوجته : أعطني خالد يا عزيزتي ، واذهبي لإعداد طعام الإفطار ؛ كي نذهب أنا ويافا للبحث عن منزلها .

- كانت يافـا تتناول الطعام بهدوءٍ وصمت ، تحدث نفسها : ترى ما الذي يحدث معنا ؟ كيف دخلنا إلى هنا ؟ وكيف يمكن أن ألتقي جدي وجدتي وأبي هكذا ؟ ثم كيف وصل شمعون إلى هنا وكيف وصل المفتاح إلى يده ؟ أيعقل أن يكون قد دخل إلى الدار وعثر على الكتاب ؟!
- أنهى الجميع طعامه ، قال عز الدين : أنا سأصعد إلى الأعلى ، هل تأتين معي يا صغيرتي لأريكِ المنزل ؟
- سُرّتْ يافـا بعرضه ، قالت على الفور بعد أن ابتلعت آخر لقمة في صحنها : بكل سرور .
- صعدا إلى الأعلى ، كل شيء هنا يبدو محتفظًا بجماله . النوافذ الخشبية الجميلة التي لا تحجب أشعة الشمس وتمنعها من التسلل إلى الداخل ، الستائرُ البيضاء المنقوشة ، الأثاثُ الخشبي المزخرف بعناية .

لحظة ! الغرفة ، غرفةُ جدي أين هي ؟

تقدمت قليلاً وهي تسير إلى نهاية الرواق ، دفعت الباب قليلاً فانفتح .

- قال لها عز الدين : هذا مكتبي . أحب الجلوس هنا بمفردي والكتابة .
- لفت انتباهها وجود المكتب الخشبي المزخرف ، وعلى الطاولة كتاب !

لكن الصورة ! أين الصورة ؟ إنها غير موجودة .

- تقدم عز الدين ، جلس خلف الطاولة ، أخذ الكتاب .

الكتاب ! إنه الكتابُ نفسه ، غلافه من الجلد ومنحوت على واجهته صورةٌ للمسجدِ الأقصى .

- خاطبت يافا نفسها بالقول : هل أنا في حلم ؟!
- قال لها عز الدين : هل تودين قراءة ما كتبت ؟
- بالتأكيد .

بدأ يسرد على مسامعها : " خُطّ هذا الكتاب ليكون شاهدًا على الحقيقـةِ التي سـ يسعى العدو لإحراقهـا يومًا ! " .

" من لا يبحث عن الحق يعيش ميتًا " .

شعرت بالأرض تدور من حولهـا . كادت تقع أرضًا فهي لم تعد تفهم شيئًا مما يجري .

كانت تسمع كلامه كالخيال . يقترب من مسامعها ثم يضيع في الهواء .

حاولت أن تتماسك وتتمالك نفسهـا .

آخر جملةٍ قالها سمعتها واضحة : والبقية ما أخبرتكم به حين كنتِ مع الطفلين الآخَرَيْن .

حسنًا ، لنذهب الآن .

****

ودّعت يافـا السيدة لطيفة ، وقبّلت خالد !

- خرجت مع السيد عز الدين ، وأثناء سيرهمـا لمحتْ جهاد ووليد ، صرخت بأعلى صوتها وهي تلوّحُ بيدهـا : جهاد ، جهاد ، أنا هنا يا أخي .
- تلفّت جهاد حوله ، إنه صوت يافـا تناديه .

رآها من بعيد ، امتلأ صدره بالسعادة والارتياح وكأن عبئًا ثقيلاً انزاح عنه .

ارتسمت على شفتي الطفلين ابتسامة مليئة بالسعادة ، ركضا نحوها .

ارتمت يافـا في حضن جهــاد ، ثم انفجرتْ باكية تقول له : أخي أين كنت لقد خفتُ كثيرًا ؟

- حاول جهاد مقاومة دموعه وهو يقول لها : أرجوكِ سامحيني ، أعدكِ أن لا أتركِكِ مجددًا .
- بدا السيد عز الدين سعيدًا بهذا اللقاء ، قاطع لحظاتِ الشجن تلك بالقول : والآن يا أطفال سأوصلكم إلى داركم .
- قال له جهاد : لا يا سيدي ، نحن نعرف الطريق جيدًا . شكرًا لك .
- حسنًا كما تشاءون . لكن انتبهوا على أنفسكم جيدًا وإن احتجتم شيئًا تعالوا إليّ . يافا تعرف طريق المنزل . إلى اللقاء .
- لوّحوا بمحبة وهم يودعونه : إلى اللقاء سيدي .
- قالت لهما يافا بحماسة وهي تمسح دموع عينيها : لقد نمتُ البارحة في دارِ الرياحين .

ورأيتُ أبي .

- قال جهاد بتعجب : أبي ؟!
- نعم . لقد كان رضيعًا ، ثم أطلقت ضحكة مشاكسة مليئة بالبراءة .

ثم واصلت كلامها : ورأيتُ الكتاب والمفتاح والبندقية ، كل شيء كان يبدو على ما هو عليه . لم يتغير ! حتى الكلام الذي كنت تقرؤه في الكتاب قرأه جدي على مسامعي ، أخبرني أنه يكتب يومياته وعدد من الحقائق التاريخية في الكتاب .

- شرد جهاد ، ثم تمتم بصوتٍ خفيض : عجيب !
- التفت نحو يافـا وقال : أعطني المفتاح يا يافـا ، يجب أن نجد طريقة للخروج من هنا .
- بدت يافـا مترددة وهي تقول بصوتٍ مرتجف : أنا .. أنا ... لقد ضاع المفتاح مني .
- صاح وليد : ماذا ؟ ما هذا الذي تقولينه ؟! كيف ضاع منكِ ؟!

- يبدو أنه سقط مني قبل أن يبتلعنا الكتاب ، وقد رأيتُ شمعون هنا وكان المفتاح معه .
- شمعون ؟! ما الذي جاء به ؟!
- نعم شمعون أيها الأشقياء . لم يتوقع الأطفال أن يروا آرييل شمعون يقف أمامهم تلك اللحظة .
- وقف جهاد أمام يافا ووليد يحامي عنهما ، وهو يخاطب شمعون بالقول : أعطني المفتاح !
- أطلق شمعون ضحكة شريرة ملأت المكان ، ثم قال : بل يجب أن تحترقوا وتموتوا ! كل شيء هنا يجب أن يحترق . هذا الكتاب وكل الحقائق الموجودة فيه يجب أن تحترق ، لا ينبغي لكم الخروج من هنا ، كل من يعرف الحقيقة يجب أن يموت ؛ كي تموت معه كل الحقائق !
- همس جهاد لوليد ويافا : يافا أنتِ تعرفين الطريق إلى دار الرياحين سنركض إلى هناك ، اركضا بكل قوتكما .
- يافا ووليد بصوتٍ واحد : حسنًا .
- صاح جهاد : الآن .
- ركضوا هاربين بكل ما أتيحت لهم من قوة . وشمعون يركض خلفهم يحاول اللحاق بهم .
- وصلوا إلى دار الرياحين ، تأكدوا أن شمعون لم يلحق بهم .

المكان يبدو موحشًا لشدة الهدوء الذي يحيطه .

البابُ مفتوح . دلف الأطفال إلى الداخل .

لا أحد ! قالت يافا .

تعجّبت ، أين ذهبت جدتها ومعها والدها .

- صعدوا إلى الأعلى وهم يتفحصون المكان ، قال جهاد : ألم تقولي أنكِ وجدتِ الكتاب ؟
- نعم . إنه في الغرفة نفسها .
- جيد ، لابد وأن نجد بواسطته طريقة للخروج منه .

ساروا نحو الغرفة ، رأى جهاد الكتاب موضوعًا على الطاولة ، أسرع نحوه .

التقطه بسرعة ، حاول فتحه .

- إنه لا يُفتح . ما الأمر .
- سمعت يافا صوت قرقعة أقدام ، قالت وهي ترتجف : أخشى أن يكون شمعون .
- جهاد بنفاذ صبر : تبًا . إنه لا يفتح ولا مكان على جانبه لمدخل مفتاح !

- قال وليد وقد بردت أطرافه واشتد خوفه : ماذا سنفعل الآن ، سيقتلنا شمعون !
- سأل جهاد يافـا : هل قلتِ أنكِ رأيتِ البندقية ؟
- نعم . هناك في الخزانة .
- سار جهاد نحو الخزانة وأخرج البندقية .
- صاح به وليد : ما الذي تنوي فعله ؟ هل تستطيع استخدامها ؟
- سأحاول . لا يوجد أمامنا حل آخر .
- دخل شمعون ، ما إن خطا أولى خطواته إلى الداخل حتى فاجأه جهاد والأطفال بالظهور من خلف باب الغرفة .
- كان جهاد يحمل البندقية كـ رجلٍ مخضرم ، بشجاعة ودون أن يَطرف أو يهتز له جفن قال : الحقيقة يجب أن تبقى وتحيا وأنت من سيموت ويحترق يا شمعون !
- ما إن التفت شمعون إليهم حتى أطلق جهاد رصاصة من البندقية التي كانت بين يديه مخترقةً جسد شمعون النتن !

****

- جهاد بنيّ هل تسمعني ؟!
- أجبني يا صغيري .
- يا إلهي . افعل شيئًا يا خالد .
- التفت خالد إلى الأطفال أنّبهم بقسوة : ما الذي جاء بكم إلى هنا ؟! ما الذي كنتم تفعلونه ؟ وكيف سقط جهاد ؟
- أطرقت يافا برأسها ، صارت تنشج بخوف وهي تحكي : كنت ألاحق فراشة صغيرة . ظللنا نتتبعها إلى أن دخلت إلى الغرفة واستقرت على الصورة المعلقة ، صعد إليها جهاد كي يمسكها وفجأة سقط أرضًا .

حاولنا إيقاظه لكنه لم يستيقظ ، فـ أتينا إليكم لنخبركم بالأمر .

- قالت سلام بصوتٍ مفزوع ونبرةٍ مملوءة بالخوف : ليس الآن وقت التأنيب يا خالد . افعل شيئًا . إنه يتحرك .
- اقترب منه خالد ، وناداه : جهاد بنيّ استيقظ . هل أنت بخير ؟
- بالكاد استطاع جهاد فتح عينيه ، بعينين نصف مفتوحتين نظر إلى والده وقال بلسانٍ ثقيل : أبي . إنّ ما يؤخذ بالقوة والاحتلال والاغتصاب لا يُستردّ إلا بالسلاح !

****